

إمكانية الحديث عن فكر فلسفي جزائري محض

د/ العربي ميلود

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

miloudlarbi2003@yahoo.fr

الملخص:

إن المتتبع لمسار الفكر الفلسفي عبر مراحلہ المتعاقبة يلاحظ أن كل مرحلة تاريخية أضفت طابعها الخاص على العصر المنبثقة فيه، فكانت تشكل دوما روح ذاك العصر بكل ما يحمله من أبعاد تاريخية، سياسية، ثقافية، سوسيولوجية وغيرها.. فكان أن حملت الفلسفة دوما في أذهان الفلاسفة وحتى العامة، التعريف الأكثر رسوخا في الوعي الإنساني ألا وهو محبة الحكمة، والحكمة ليست نمطا مقننا للتفكير، فكل قول يحمل في ثناياه أبعادا إنسانية، مهما اختلفت وتعددت هذه الأبعاد هو بامتياز شكل من أشكال التفلسف.

الكلمات المفتاحية: الفكر؛ الفلسفة؛ الواقع؛ الجزائر.

*- الحق في التفلسف !!..

لعل الحديث عن الفلسفة في الجزائر يدفعنا لمعاودة البحث والتساؤل عن كنه الفلسفة ذاتها؟ ولعل هذا التساؤل نابع من سؤال يورق العقل العربي المعاصر وليس فقط الجزائري: هل هناك فعلا فلسفة عربية معاصرة؟ لماذا نصطدم بنعت نطلقه على مباحث تفكيرنا بأنها فكر وليست فلسفة، في مقابل نعت ذات المباحث الفكرية الغربية على أنها فلسفة، وقد نذهب إلى أبعد من هذا الحد من الإنتقاص لأنماط تفكيرنا، وندعوه في الجزائر بالخطاب، فدعونا نتساءل قبل الخوض في أفق التفلسف المتاحة في الجزائر، وطبيعة هذا النمط من التفكير مقارنة بالمواضيع الفلسفية الكبرى، ما هي الفلسفة؟ وما هي أشكال التفكير والتعبير التي من الممكن أن نلحقها بالفلسفة أو ندعوها فلسفة؟

إن المتتبع لمسار الفكر الفلسفي عبر مراحل المتعاقبة يلاحظ أن كل مرحلة تاريخية أضفت طابعها الخاص على العصر المنبثقة فيه، فكانت تشكل دوما روح ذاك العصر بكل ما يحمله من أبعاد تاريخية، سياسية، ثقافية، سوسيولوجية وغيرها.. فكان أن حملت الفلسفة دوما في أذهان الفلاسفة وحتى العامة، التعريف الأكثر رسوخا في الوعي الإنساني ألا وهو محبة الحكمة، والحكمة ليست نمطا مقننا للتفكير، فكل قول يحمل في ثناياه أبعادا إنسانية، مهما اختلفت وتعددت هذه الأبعاد هو بامتياز شكل من أشكال التفلسف.

لكن في الفترة المعاصرة لم نصطدم فقط بالبحث عن الحق في الفلسفة، بل اصطدنا بعائق تاريخي وليس ابستمولوجي فقط، ينمط الفلسفة ضمن شكل منغلق يسمى بالمعجزة اليونانية. حيث يتشدد الكثير من مؤرخي الفلسفة في إطلاق عبارة "المعجزة اليونانية"، وفي المقابل نجد أن هناك قاعدة منطقية يونانية تقول: "لا شيء من عدم"، فكيف لفكر إنساني أن يخلق من عدم، لن نحول مقالنا هذا إلى استقصاء تاريخي، بل نكتفي بالقول انه يستحيل محو تاريخ بشري بدءا مع الفراعنة والصينيين والبابليين بجرة قلم متعصبة، وبما أن الفلسفة في حد ذاتها هي تأويل للعالم فقد نجده في نص عشتار الفينيقي أو ألواح جلجاماش البابلية، لن يقل كونفوشيوس ولا حوراي ولا كتاب الموتى المصري حكمة عن سقراط، إلا إذا فهمنا الحكمة بمعناها الضيق المتواتر أكاديميا أنها تخلوا من كل إشارة دينية، ألا نجد في الدين عمق التعقل؟، أو أن هذا التمايز الأكاديمي بين الدين والعقل عائق..ألا يجب إعادة النظر في هذه الأزواج المفهومية الغامضة العقل واللاعقل؟، ما الذي يؤسس للحدود بينهما؟ ألا تنحو التقنية المعاصرة لتكون لاعقلية، كما يشير ارنست كاسيرر؟، ألا يتحول العقل والدولة اليوم إلى أسطورة؟، ألا يصبح العلم اليوم دينا لملايين الشعوب؟، هل هناك حقا مبرر قوي لوضع هذا التمايز بين العقل واللاعقل؟

قد نعود ونراجع كيف حدثت ما يسمى المعجزة اليونانية، أليس بالانتقال من الأسطورة إلى العقل "من الميتوس إلى اللوغوس" - كما يقول غادامير-.

ألم يحن اليوم الذي نعيد فيه بعث تعريف الفلسفة " بأنها كل أشكال الفكر الحاملة لروح العصر"، ونبدأ بدراسة الفلسفة من شرائع حمورابي مثلاً؟، أو من أقدم مخطوط قصصي خطه الإنسان، أسطورة جلجاماش، كبداية للتساؤل البشري في قضايا الحياة والموت والخلود؟.

إن الفلسفة مع نهاية النسق، لم يعد لها موضوعاً محدداً وتنوعت مواضيعها حيث باتت تطرق مواضيع لم يبحث فيها عبر تاريخها الطويل، حاولت الفلسفة الما بعد نسقية محاكاة الواقع الإنساني مع كل تشعباته النظرية والإجرائية، فعلى المستوى النظري باتت الفلسفة تبحث لها عن وظيفة ما داخل الحقول المعرفية المعاصرة، تعيد صياغة إشكالياتها، فبات عمل الفلسفة " لا يخرج عن السمة التي طبعت الفلسفة بعد هيجل حيث لم يعد لها موضوع، وحيث أصبحت تشتغل بنفسها وتعيد قراءة تاريخها بغية تجاوزه"⁽¹⁾. لذا كان لا بد في هذه الفترة بالذات من ثورة فكرية ومنهجية على فكرة المركزية والأحقية في التفلسف، فلا يمكن الركون إلى التراث الأوربي والاعتقاد بأحقيته المطلقة في بعث روح الفلسفة، بل لا بد من زحزحته وخلخلته، ألم يقل نيتشه: "لا تولد الحقيقة إلا من تزاوج الوقاحة وسوء الظن والرفض القاسي والكره والشقاق في الحياة، وما أصعب أن تتوافق وتتحد جميع هذه المقدمات"^{(1)''''}.

(1) عبد السلام ابن عبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزه الميتافيزيقا، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1991، ص 82

(1) . نتشه، "هكذا تكلم زرادشت" فليكس فارس، دار القلم بيروت، ص 230 .

إن الحديث عن الحق في التفلسف هو في حد ذاته حق مشروع لأي عقل إنساني، فهناك نصوص خارج النص اليوناني مورس عليها الإخفاء، فكان يجب مساءلة ونقد مفاهيم يقوم عليها الفكر الغربي نفسه، اكتسبت على مر العصور صبغة الحقيقة المقدسة.

لربما هذا ما سيظهر بشكل جلي في بعض القراءات الفلسفية الجزائرية التي حاولت قراءة تاريخ الفلسفة، ليس لأجل الإجتاز، وإنما بغية مساءلة المفاهيم المركزية التي يتّقوم عليها الفكر الغربي عموماً.

والحديث عن الفلسفة في الجزائر لربما سيتخذ نوعاً من الغموض عن الجزائر كمكان، أو الجزائر كأفراد منتسبين إليه، فلنا بصدد الحديث هنا عن القديس أوغسطين أو جاك دريدا و ألبير كامو، بل سنتحدث عن جيل جزائري معاصر، حاول بعث الحق في التفلسف في مجتمع همشه وأخره الإستعمار، نعترف أن المهمة كانت شبه مستحيلة مع بداية استقلال البلاد، لعدم الإلمام الجيد بالنصوص الفلسفية الكبرى، وسيطرة الإيديولوجيات السياسية على الجوانب الفكرية، بين فيلسوف دعم الثورة التحريرية فهو مرحب به وآخر مرفوض نتيجة مواقفه السياسية.

لكن لسا هنا بصدد سرد تاريخي للمراحل التي تعاقب فيها الدرس الفلسفي في الجزائر، لكن نود أن نبرز خصوصية التفلسف في الجزائر من خلال بعض النصوص الفلسفية التي حاولت الخروج من تاريخ الفلسفة، إلى طرح

تساؤلات تعالج في جانبها الإشكالي، الواقع الجزائري بنبرة فلسفية خافتة نوعا ما لكنها تؤكد جاهدة على حقها في التفلسف.

وسنأخذ على سبيل المثال لا الحصر نصوص ثلاث نجدها ذات صبغة فلسفية جزائرية خالصة، أولها كتاب فلسفة الثورة الجزائرية للأستاذ البخاري حمانة، والكتاب الثاني الفلسفة والفضاء العمومي للأستاذ بن مزيان بن شرقي، والكتاب الثالث الشك ومكامن الغل في فلسفة المشهد الجزائري للأستاذ الزاوي الحسين*، وهي محاولات سعت لأن تمزج بين التصورات الفلسفية والمشهد الفلسفي والسياسي والإجتماعي والثقافي الجزائري.

*- الثورة الجزائرية برؤية فلسفية :

من أهم المؤلفات المنجزة في الفترة المعاصرة بالجزائر كتاب الدكتور البخاري حمانة الموسوم بـ " فلسفة الثورة الجزائرية"، وفي تقديم هذا الكاتب نجد هذه الجمل حول الكاتب والكتاب تعبر بشكل عميق عن قيمة كليهما : " الكتاب يتناول مسألة هامة وخطيرة في الخطاب الفكري الجزائري، لأنها ترتبط بمسألة الهوية الوطنية.. وما يزيد من رونق وبهاء هذا الميلاد المعرفي الجديد، أن صاحب هذه اللحظة يعتبر أحد أعمدة البحث الفلسفي في الجزائر"¹

وبالعودة إلى المؤلف الذي يعالج أحد أهم مراحل الجزائر المعاصرة، ثورة نوفمبر المجيدة التي زلزلت العالم كله في جوانبها الحربية والسياسية، تأتي مقارنة الأستاذ

*- الأساتذة الثلاث هم أساتذة فلسفة بجامعة وهران. الجزائر.

¹ - البخاري حمانة، فلسفة الثورة الجزائرية، (التصدير)، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، ط1،

البخاري حمّانة لهذه الثورة مقارنة فلسفية، فلربما نجد أن العديد من الثورات العالمية كانت أرضيتها ومنطلقها فلسفات إنسانية، كالثورة الفرنسية مثلا، لكن مع الثورة الجزائرية لم يكن المنطلق فلسفيا لكنها أنتجت فلسفة، أنتجت فلسفة للتاريخ مغايرة لفلسفة التاريخ الهيجلية، لكنها فلسفة نوفمبر كما يسميها المؤلف، فلسفة تداخلت في ثناياها مقاربات إسلامية وإسلاموية، علمية وعلمانية، شعبية وماركسية.

وهنا تختلف الفلسفة في مفهومها الشائع عن مفهوم الفلسفة الثورية، فليست الفلسفة كما يقول الأستاذ البخاري "فلسفة من أجل التفلسف، دوغما تفاعل يذكر مع الواقع المعاش وتحدياته المتعددة والمتجددة.. بل إن الفلسفة التي نريد ونقصد هي تلك الفلسفة النابعة من أعماقنا والقادرة على التعبير عن آمالنا وألامنا، عن أصالتنا وتفتحنا في الوقت نفسه، وذلك من خلال عملها على وصلنا بكل معطيات عصرنا، وبكل ايجابية ماضينا كذلك وفي نفس الوقت"².

تعريف جزائري خالص للفلسفة من خلال فلسفة الثورة الجزائرية، نلمح الأستاذ البخاري من خلاله يدعو هو كذلك إلى الحق في التفلسف لمجتمعنا، فليس بالضرورة أن نطرح ذات المفاهيم الفلسفية الغربية ونقارب ذات الموضوعات، لكن أن نتفلسف من خلال تاريخنا وحاضرنا، ساعين لأن نغير شيئا من تعقيداته، مجارين قول ماركس ونداءه أنه على الفلاسفة أن يغيروا

- المرجع السابق ، ص 37.

العالم لا أن يفسروه. وبالفعل كانت فلسفة الثورة الجزائرية خير مغير لواقع مجتمع بأكمله، حاول أن يؤسس لفلسفته من خلال جملة من العناصر النظرية والإجرائية امتزج فيها السياسي والإجتماعي والثقافي وكله تحت بوتقة فلسفة الثورة الجزائرية أو ثورة الفلسفة الجزائرية.

*- الفضاء العمومي: أهم إرهاصات التفلسف بالجزائر.

النموذج الثاني الذي اخترناه للتدليل على أن لنا الحق في التفلسف، مؤلف للأستاذ بن مزيان بن شرقي موسوم بالفلسفة والفضاء العمومي. ولعل الأستاذ سيختصر علينا البحث عن أشكال التفلسف داخل نصه وإصدار أحكام تقييميه حولها، فلربما أنه قد انتبه للمشكلة المعرفية المطروحة علينا كجزائريين وحتى كمسلمين وعرب والمتمثلة في التساؤل التالي: هل لنا الحق في أن نتفلسف وأن نفكر فلسفيا في واقعنا وفضاءنا الخاص والعمومي؟. فلنقرأ هذه العبارات التي أراد لها الأستاذ بن مزيان أن تكون في مقدمة كتابه: "الفلسفة حق وواجب على كل إنسان مهما كانت صفته وموطنه، جنسه أو لغته، ليس لشيء بل لأن الفلسفة هي الإنسان نفسه، وعليه إذا كانت الفلسفة اليوم تعيش ترحالها فتلك مرحلة ضرورية من مراحل تاريخها، وما علينا سوى العمل على أن نفلسف ونتفلسف داخل هذا التنوع الطبيعي لتاريخ الفلسفة نفسها"³.

³ - بن مزيان بن شرقي، الفلسفة والفضاء العمومي - التحديد والتوضيح - دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، ط1، 2007، ص12.

مجلة دراسات إنسانية. ...د.العربي ميلود...ع(1) ديسمبر2015: ص ص07-19

وعليه سعى المؤلف لأن يمارس هذا الحق في التفلسف داخل فضاءنا العمومي، محاولا البحث في فضاءات التواصل الممكنة داخل مجتمعنا وفق خصوصيته طبعاً، وليس بعيداً عن نظريات التواصل الفلسفية، فحنا أرندت -مثلاً- في كتابها مسألة الإنسان الحديث تميز بين فضاءين ينظم من خلالهما مجرى التواصل: الفضاء العمومي *espace public* والفضاء الخاص *espace privé*.

هذا التواصل بين الفضاء العمومي والخاص هو ما سيشكل فيما بعد مسعى هابرماس للتأسيس لعقلنة تواصلية *Rationalité Communicationnelle* في مقابل العقلنة الأداةية *Rationalité instrumentale*، عقلنة تواصلية تخلق فضاءات ارتباطات اجتماعية داخل الفضاء العمومي، تواصل عقلائي بين أفراد المجتمع من دون قمع أو عنف وإكراه وفق أخلاقية الإتصال.

هذه الأخلاقية هي ما سيبحث عنها الأستاذ بن مزيان في مؤلفه من خلال الإرتحال بين الفضاءين الخاص والعمومي متلمساً حدود التجربة الفلسفية التواصلية الجزائرية من خلال طرح مجموعة موضوعات يمتزج فيها الجانب الفلسفي العام، والإجتماعي والتراثي الجزائري، فأن تبحث نظرياً في اللامفكر فيه ضمن المخيال الإجتماعي، فأنت تجسد سلطة العقل في تفعيل الفضاء العمومي، ونجد من ضمن الموضوعات المطروحة في هذا الكتاب: الغريب، المصالحة، الإمضاء، الضيافة، الجامعة، البخل...إلخ.

إذا تأملنا داخل نصوص هذه الموضوعات نجدها تدعوا إلى التحرير من القوى المؤسسية والبيئية والجنسية التي تحد من خيارات الإنسان، ومن التحكم العقلاني في الحياة، والتي يؤخذ بها باعتبارها أمراً واقعاً لا يقوى الإنسان الفكاك منه، وواقعة خارج دائرة حكمه. على هذا الأساس فإن البصيرة المستمدة من الوعي النقدي لفضائنا الخاص والعمومي تعتبر تحريرية بما أنها تسمح بالتعرف على الأسباب الصحيحة والحقيقية لما يواجه الإنسان من مشاكل. معارف التحرير تتأتى من خلال التحرير الذاتي الناتج عن التأمل والذي يفضي إلى (تحول الوعي).

لفظة تحول الوعي لربما تتطابق مع عنوانة الخاتمة في الكتاب "باستئناف البدء"، لأن عجلة الفلسفة لا تكف عن الدوران ولا تعترف بالحدود بل هي تجدد حركتها وتستأنف بدايتها ضمن كل الفضاءات دون استثناء.

*- الصراعات الهوياتية داخل الواقع الجزائري.

النموذج الأخير الذي اخترناه لإبراز أفق التفلسف في الجزائر، هو كتاب للأستاذ الزاوي الحسين موسوم ب: "الشك ومكامن الغل في فلسفة المشهد الجزائري".

ويبرز جليا من العنوان أن للمشهد الجزائري فلسفته الخاصة مرتبطة بالرهانات التي يقف عليها المجتمع، والتي تتطلب - كما يطرح الأستاذ الزاوي في كتابه هذا- أن يتم معالجتها وفهمها بالطرق العلمية والفلسفية بعيدا عن السجلات السياسية والفكرية العقيمة.

فقد تناول المؤلف أهم الإشكالات التي تصادف الواقع الجزائري، ولعل أهمها إشكالية الهوية بالمعنى الخاص وإشكالية الأنا والآخر بمعناها العام والشمولي. فالمجتمع الجزائري يعاني حالة من الإغتراب يمكن مواجهتها بالمرهنة على الفلسفة لما تحتويه من مناهج ومضامين كفيلة بإحداث نوع من الخلخلة داخل هذا الإشكال الاجتماعي والمعرفي.

إذ يؤكد الأستاذ الزاوي على مسألة الوعي التاريخي في فهم الذات ببعدها الهوياتي، ويحذر من مغبة الأدلجة، التي تشكل تربة خصبة لأدلجة الشعارات والبرامج السياسية، متخذة من الهوية المجال الأنسب لإنجاح مثل هذه المشاريع، فمن خلال هذا الكتاب سيسعى المؤلف إلى توضيح طبيعة الأزمة التي يعاني منها المجتمع الجزائري وما أفرزه من قيم مصطنعة ذات طابع ثنائي تعمل بمنطق " إما.. أو"، ما تمخض عنها ثنائيات عدة متصارعة عقائديا وأيديولوجيا، الرجل والمرأة، الدين والدولة، القانون الوضعي والشريعة الإسلامية... الخ.

هذه الثنائيات المفتعلة يراها المؤلف على أنها تحمل صراعا مزيفا، لأنها تفتقد لمقاربة هوياتية قائمة على المعرفة التاريخية والبعد التأملي الفلسفي.

لذا نجد الأستاذ الزاوي يحاول أن يشخص واقع الشك ومكامن الغل داخل الواقع الجزائري، من أدلجة فكرية وصراعات هوياتية، وغموض يكتنف طبيعة هذه السجلات، فنجده يضع هذه الأزمات تحت المجهر ويعرض للمنهاج الفكري الأنسب لتجاوز هذه الأزمة الهوياتية، ألا وهي الفلسفة القادرة على

تبيان مواطن الضعف والتشعب، وتقديم المصوغات اللازمة لتجاوز هذه المشكلات المزيفة والمصطنعة.

فالسبب الرئيس وراء تنامي هذه الأزمات هو في "ضعف المرجعيات الفكرية المحلية والوطنية، ما أسهم بشكل تدريجي في بروز وتنامي ما يسمى بإشكالية الهوية"⁴.

* - دفاعا عن الحق في التفلسف :

أطلق المفكر الإنساني الهولندي إرازم صحيحة في مستهل القرن السادس عشر يقول فيها "يا إلهي ما أروع هذا القرن الذي أراه يفتح أمامنا".

صحيحة تعبر عن مدى إفتتان المفكرين في عصر النهضة بعصرهم وشعورهم بأنهم يشاركون بالفعل في مغامرة مثيرة وفريدة من نوعها تقدم عليها البشرية على صعيد الفكر والثقافة والمعارف.

فهل ترى سنستقبل نحن اليوم تباشير القرن 21 الذي يفتح أمامنا بنفس الحماس والإعجاب والتفاؤل؟.

سؤال أوّسس لمشروعيته من أني لا أظن أن حالة إرازم هي حالة إستثنائية. بل قد نتفاءل نحن كذلك من خلال هذه التجربة الفلسفية الجزائرية، والتي تشكل انتفاضة فعلية على مستوى الدرس العلمي عموما والذي هو ملك

4 - الزاوي الحسين، الشك ومكامن الغل في فلسفة المشهد الجزائري، رياض العلوم للنشر والتوزيع

مجلة دراسات إنسانية. ...د.العربي ميلود...ع(1) ديسمبر2015: ص ص07-19

للإنسانية جمعاء، فالعالم والمفكر والباحث ليس ملكا لنفسه. فقد سئل الفيلسوف الفرنسي الراحل جاك دريدا يوما. ماذا يعني أن تكون مفكرا وفيلسوبا فرنسيا. فأجاب بأنه لا يجب أن نسأل أي فيلسوف عن جنسيته ولا عن جواز سفره ولا أن نطالبه بتأشيرة لأن فكره هو فكر إنساني، ينأى عن فكرة المواطنة والدولة .

عقب عرض هذه النماذج الثلاث التي حاولت أن تخرج النص الفلسفي من فضاءه المكاني الأصلي إلى فضاءات أخرى وأمكنة أخرى، لا بد من الإقرار بأن الحق في التفلسف هو ما يجب أن نمارسه في شتى مجالات حياتنا ومع كل مشاكلنا وأزماتنا، فليس هذا الحق بالشيء الذي يطلب من الغير بل يكفي أن نتحكم في ميكانزمات التفلسف، كي تبقى الفلسفة هي الأرض الموحدة لجميع العقول.